صورة الحيوان في الشعر العربي القديم

قصص الحيوانات :

يعمد الشاعر أثناء وصف الناقة إلى إدعاء الشبه بينها وبين مجموعة حيوانات صحراوية أخرى، تشترك معها في بعض الصفات الجسدية والنفسية، ومن خلال هذا التشبيه يقوم الشاعر بسرد قصّة هذا الحيوان، وما تعرض له من المكاره والأهوال، مركزا على إبراز عناصر القوة والجمال والتحمل التي يتحلى بها، وهي قصص مكررة متداولة بين الشعراء لا يختلفون في خطوطها العامة، ولا في الصفات التي يجب أن تنسب إلى الحيوان الموصوف، مما يدل على أصلها الواحد، ومنشئها الديني الطقوسي، وهذه الحيوانات المختارة هي الثور الوحشي والبقرة الوحشية والحمار الوحشي والظليم.

أ ـ قصة الثور الوحشي :

عبد العرب القدامى ثالوثا من الآلهة، مكونة من الشمس أما، والقمر أبا، والزهرة أو "عشتر" ابنا، وشيئا فشيئا ربطوا بين المرأة والشمس، فشبهوها بها، هي والغزالة والمهاة، مركزين في غزلهم على عناصر الخصب والأمومة والأنوثة المبالغ فيها في جسد المرأة، كما ربطوا بين الثور والقمر، حتى أنه في العربية من أسماء القمر ثور، كما سمّي به بعض العرب تيمنا بهذا الإله الذي كان يسمى أيضا "ود" أو "سين" أو "شهر"، ومن صفاته أنه "كهلن" أي قدير، و"أبم" أي أب، ولم يكن العرب وحدهم من قدّسوا الثور وعبدوه، فقد عبدته شعوب وأقوام سامية أخرى كالكنعانيين وبني اسرائيل، وكانت قرون الثور رمزا للقوة والمهابة، اتخذها الملوك القدامى تاجا وشعارا، وللثور الوحشي المقدّس عند قدامى العرب صفات محدّدة ذكرها الشعراء وحرصوا على إبرازها، فهو من الناحية النفسية قلق متوجس، لا يأمن بيئته، شجاع وخطير، ومن الناحية الجسدية فاتح اللون أبيض الظهر، ما عدا قوائمه فهي سوداء كأنها مطلية بالقار، وصدره ورقبته كذلك سوداوان، وهذا التمازج بين الأسود والأبيض يجعله شبيها بالبرق في الليلة الظلماء، وقرونه حادة ملساء كأنها سيوف مسلولة، وأنفه أخنس.

تبدأ قصّة الثور الوحشي ليلا، في موسم الشتاء البارد، حيث يلجأ وحيدا وقد أنهكته الأمطار والرياح القاسية إلى شجرة الأرطى يحتمي بها، أو شجرة الغرقد، ليقضي بها ليلته، ويحاول عبثا أن يحفر له حفرة قرب أصلها، ولكن الرمال المبللة لزجة جدّا تتسرب من تحت قدميه، ولا تمكنه من ذلك، فيحاول الالتصاق بجذع الشجرة محركا قرونه في عدة أوضاع، ويزداد الأمر سوء حين يتحول المطر إلى برد كثيف يضرب ظهره ويزيد في عذابه، ولكن الثور يبقى صابرا، فيقضي ليلته متعبا خائفا مهموما، يشعر بالخطر يترصده من كل جانب، وعند هذا الحد تتوقف القصة عند بعض الشعراء.

يقول لبيد بن ربيعة:

كأخنس ناشط جادت عليه ببرقة واحف إحدى الليال
أضل صواره وتضيفته نطوف أمرها بيد الشمال
فبات كأنه قاضي نذور يلوذ بغرقد خضل وضال
إذا وكف الغصون على قراه أدار الروق حالا بعد حال
جنوح الهالكي على يديه مكبا يجتلي نقب النصّال

وتبدو الصورة الأسطورية أكثر وضوحا عند الشاعر بشر بن أبي خازم، حيث شبه الثور بكوكب وقاد، قد يكون القمر أو نجم الشعرى، وهناك كوكبان عدّوان يهاجمنه، هما برج العقرب وبرج الأسد، وهو صابر مستكين كأنه مريض بالرمد:

كأنها بعدما طال الوجبف بها من وحش خبة موشى الشوى فرد
طاو برمله أو ران تضيّفه إلى الكناس عشي بارد صرد
فبات في حقف أرطاة يلوذ بها كأنه في ذراها كوكب يقد
يجري الرذاذ عليه وهو منكرس كما استكان لشكوى عينه الرمد
بانت له العقرب الأولى بنثرتها وبلّه من طلوع الجبهة الأسد

وتستمر القصة عند بعض الشعراء، حيث يسفر الصبح عن هذا الحيوان، فيغادر شجرة الأرطى، وحوافره تنزلق على الرمال المبللة، وهو لا يزال يستشعر الخطر يحيط به من كل جانب، وفعلا تبدأ عملية مطاردة يقودها صياد محترف، نحيف، فقير، بشع المنظر، رث الثياب، يجر معه كلابا في غاية الشراسة، وقد جوّعها عن عمد، وطاف بها طويلا في الصحراء بلا صيد، كلاب مسترخية الآذان، مطوقة الأعناق، دقيقة الرؤوس، ضامرة، ولكن الثور يبدي أنفة وعزة نفس، ولا يجبن عن المواجهة، فيقرر التصدي لها،

وبعد معركة حامية الوطيس ينتصر الثور ويتمكن من قتل أعدائه والسيطرة على الموقف، ثم يغادر المكان وهو يشع فرحا وسرورا بنجاته.

إنّ قصة الثور الوحشي أسطورة قد ضاع أصلها، فالثور يرمز للإله القمر، وتبدأ قصته مع قدوم الليل، وهو يتعرض في ليل الشتاء أن تحجبه السحب، فيتصور الذهن البدائي أنّ هذا اعتداء وقع على الإله من هذه القوى الطبيعية، فيلجأ إلى حماية إله آخر خيّر هو شجرة الأرطى دون أن يبدي أية مقاومة، إلى أن تشرق الشمس الأم، ثم الصياد وكلابه وهي مجموعة كواكب السماء التي ينتصر عليها الإله القمر.

على أن مصير الثور الوحشي في قصائد الرثاء يكون مختلفا، لا سيما عند شعراء بني هذيل، والملاحظ أنّ موت الثور لا يكون بواسطة الكلاب، بل بواسطة سهم الصياد، كما يلاحظ أنه لا يتم تشبيه الناقة به في هذا الحالة، بل يشبه بالإنسان الفاني، في معرض التعزية والتأسي عن فقد الميت. وأشهر ما وصلنا من شعر في هذا الموضوع قصيدة أبي ذؤيب الهذلي :

والدهـر لا يبقى على حدثانه شبب أفزته الكـلاب مرّوع
شغف الكلاب الضاريات فؤاده فإذا يرى الصبح المصدّق يفزع
فصرعنه تحت الغبار وجنبه متترب ولكـل جنب مصرع
فرمى لينفذ فـرّها فهوى له سهـم فأنفذ طرّتـيه المنزع
فكبا كما يكبو فنيق تارز بالخـــبت إلا أنــه أبرع

ب ـ قصة البقرة الوحشية :

تبدأ هذه القصة بمشهد البقرة الأم وهي تتبع القطيع هادئة مطمئنة إلى الأيام، لكنها فجأة تكتشف أن ابنها غير موجود، فتبحث عنه قلقة محتارة، وتضطر إلى التخلي عن القطيع، ويستمر بحثها المضني عنه منفردة في الصحراء سبعة أيام دون جدوى، لتتيقن في الأخير أنّ السباع قد أكلته، وأن يد القدر قد أخذته منها إلى الأبد، ويزداد الخطر أكثر حين ينزل المطر فتنزلق حوافرها على الرمل، فتلجأ إلى شجرة قريبة تحتمي بها، وفي الصباح الباكر يزداد خوفها أكثر لسماعها صوت الإنسان يقترب منها، وفعلا يظهر الصياد الذي يهاجمها بكلابه الشرسة المجوّعة، فتخوض معركة مصيرية ضدّه تنتهي بانتصارها ونجاتها.

ومن أشهر ما ورد في هذه القصّة معلقة لبيد بن ربيعة، و قصيدة زهير بن أبي سلمى التي مطلعها:

غشيت ديارا بالبقيع فثهمد دوارس قد أقوين من أم معبد

وتأتي صورة البقرة الوحشية أيضا في معرض تشبيه الناقة.